الصراع والأمن

إن المعرفة والإرادة والقدرة على الاختيار هي من أهم الخصائص التي امتاز بها الإنسان، فأكسبته القيمة والتفوق ـ بجرمه الصغير ـ على الكون الشاسع، وأهّلته للتقدير والتكريم، إن هو أحسن الاختيار، وهو يشتمل أيضاً في بعض جوانبه على نقاط ضعف، يمكن أن تشكل ثغرة تنفذ من خلالها الإيحاءات والوساوس؛ إن لم يتزود بالتحصين القوي و (التمنيع) الكافي.

وكما أن الإنسان ينمي معارفه باستمرار، ويطلب الاستزادة، ويتوق إلى الاكتشاف، فكذلك الإرادة بحاجة إلى تنمية وتقوية، والنفس بحاجة إلى تعهد وتربية، ليتمكن من أداء دوره في الحياة، ومواجهة الصعاب والأزمات التي قد يتعرض لها، والتحرر من ضغط الرغبات والشهوات والأهواء، فتصبح تبعاً لتصوراته المستمدة من المنهج الرباني، ولا يكون هو تابعاً لها، ويملك القدرة على التصرف والتأجيل، والارتفاع ـ على الأقل ـ إلى درجة الحد الأدنى من الخصائص الأساسية لهذا المنهج، مع اطمئنانه إلى أن هذه الرغبات والطاقات فطرية وطبيعية، وقد أوجدها الله ـ سبحانه ـ ليستفيد منها الإنسان، ويزاولها على طريقته، وليس على طريقة الحيوان، وبالشكل الذي يحفظ له كيانه وشخصيته، ويحافظ على تفوقه وقيمته، ويؤهله للتكريم والتقدير.

وإن تحرر الإنسان من ثقل الشهوات، وأوهاق الطين، وقوة شد الجواذب، وضغط هوى النفس - بالقدر المستطاع - يضمن له القدرة على الانطلاق والاستعلاء، والتعليق المؤقت (إذا لم يكن بإمكانه المزاولة الفورية)، والامتناع عن المحظور.

وبالتالي فلا تستعبده، أو تعرقل مسار حياته السوي، وفي هذه المسيرة السوية تكون القيادة للروح وليس للجسد، طالما أن الطين أصبح إنساناً، واكتسب خصائص الإنسان حينما حلت وامتزجت به الروح، مع تلبية مطالب

الجسد وحقوقه كاملة، دون أن تطغى عتامة الطين وتشوّه صفاء الروح.

تدور على الأرض وجوه متنوعة للصراع، وتقع أشكال متعددة من دفع الناس بعضهم بعضاً، والذي يهمنا هنا هو الصراع مع الشيطان، ومجاهدة النفس الأمّارة بالسوء.

لقد كانت تجربة آدم -عليه السلام- في أول لحظة من حياة البشرية موجهاً كبيراً، ودرساً بليغاً، ورصيداً ثميناً للجنس البشري من بعده، كي يدرك الأبعاد الحقيقية للصراع الذي يتعرض له، ويتزود بالزاد المناسب لمواجهته والتصدي له، فقد عهد الله إلى آدم مشروعية الأكل من الثمار سوى شجرة واحدة؛ وربما كان من حكمة المنع -والله أعلم- تربية الإرادة، وتنمية المقاومة في النفس البشرية، ولفت الإنسان إلى اتباع ما عهد الله به إليه، فإن خالف أمر ربه، وتخطى دائرة المحظور أصابه الشقاء.

ويجابه آدم -عليه السلام- بالشيطان مجنداً بكل قواه، ومستغلاً نقاط الضعف في الإنسان، فينفذ من خلالها، ويبث سمومه ووساوسه، فأتاه يزين له هذه النقاط التي تنحصر في أمرين رئيسيين: (الخلد) و (ملك لا يبلى).

الأمر الأول: الخلد:

وهوحب البقاء والخلود في الحياة، وكراهية الزوال، ومايتعلق بها من وسائل تؤدي إلى إطالة البقاء، كالامتداد بالنسل، والشهوة الجنسية، وحب البنين...

الأمر الثاني: ملك لا يبلى:

وهو حب الملك الدائم، والثروة الطائلة، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وما يتبعها من غائلة البخل والغل، وحب الخيل الحسان، والأنعام، والمراكب، والمطاعم، والحرث...

وهذان الأمران يضعف أمامهما الإنسان إذا لم يتخذ أهبته، ويستكمل استعداداته. والشيطان -طبعاً- لم يكن يهدف إلى هذا، ولم يكشف لآدم وحواء عن هدفه الحقيقي، فهو يبتغي كشف ما ووري عنهما من سوآتهما، وتدمير الإنسان، وقتل خصائصه، بانحرافه عن أوامر وهدى ربه، ولكن آدم ﴿ نسي ولم نجد له

عزماً﴾[1]، أصابه النسيان والضعف فأخطأ، ولكنه تاب، وقبل الله توبته، وصدر الأمر الإلهي بالهبوط إلى أرض المعركة، وقد زود الإنسان بطاقة الصراع، والقدرة على المواجهة، وحذّر من فتنة الشيطان وإغوائه وأهدافه: ﴿ يابني آدم لا يفتننكم الشيطان ﴾[2]

﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[3]

فالصراع مع الشيطان المارد مستمر ممتد، وقد أخذ على عاتقه فتنة هذا الإنسان، ودب الذعر والرعب في أوصاله، وبث البلبلة والقلق في نفسه، ودفعه إلى قضاء شهواته دون الالتزام بقالب الفطرة الإنسانية، والسلامة النفسية والجسمية.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : « يولد الإنسان والشيطان جاثم على قلبه، فإذا عقل وذكر اسم الله خنس، وإذا غفل وسوس»[4].

إن اللذة العابرة من تجاوز المباحات، واقتراف المعاصي والشهوات المحرمة، تنقضي في حينها، ويبقى إثمها وعذابها النفسي، وما قد يتكبده الإنسان من مشقة وتعب في مجاهدة النفس، والصبر على الطاعات والمكاره، وفي الابتعاد عن المحظورات التي يزينها الشيطان، ويحببها إلى النفس، يزول ويبقى ثوابه، وأثره النفسي الدافع إلى مواصلة السير في طريق الاستقامة، والمثابرة على فعل الخير، وإلى المزيد من الارتفاع والسمو والإشراق والنورانية. وقد حفت النار بالشهوات، وبالتالي قد يعظم الاختبار ويعظم الجزاء أيضاً، فالامتحان الذي لايأتي إلا بالمرغوبات والمطلوبات، ولا

---

(١) سورة طه. الآية: ١١٥.

(٢) سورة الأعراف. الآية: ٢٧.

(٣) سورة طه. الآيتان: ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٤) رواه سعيد بن منصور.

يجيء إلا بالمحببات والملذات، والذي يخلو من المكاره، ويحذف المصاعب، لا يمحص النفوس، ولا يحقق معنى الابتلاء، ولا يميز الخبيث من الطيب، ولا يفصل الزبد عن النافع، ولا يفرق بين المجاهد والقاعد، وبين المجدّ والكسول.

إن قيمة الإنسان الحقيقية، وعظمة جزائه، وزخم شأنه، وكبر شأوه، وتعالي ذكره في الملأ الأعلى، ورفعة منزلته الأبدية، وأوسمة تفوقه وإكرامه وتفضيله عند الله، تتعلق بدرجة إيمانه وتقواه، ومقدار تحرره من أثقال الشهوات، وفتنة الشيطان، وربقة الوساوس، وشد الجواذب المحفوفة بالأخطار، وتمام نقائه من تناقض المعتقدات، وشوائب الأفكار، وعكر الشبهات، ونسبة نجاته من تلبيس الأباليس، وظلام الأخطاء، ومدى انطلاقه من أصفاد المغويات، وحبال الأهواء، وقيود الأنعام، ومستوى استعلائه على ضغوط الأذى، وأقفاص الجسد، وسلاسل الأرض، وعوائق الشهادة.

وإن فهم طبيعة الصراع بين الإنسان والشيطان، وتصويره بهذا الشكل، وبهذه الاستمرارية والجدية، لايدعو إلى الاضطراب أوالخوف، وإنما يدعو إلى مزيد من اليقظة والحذر، والانتباه والاستعداد، والتعبئة الشاملة، والإعداد اللازم.

إن الشهوات هي المدخل المزين الذي يوسوس خلاله الشيطان، ويلج منه لداخل النفس البشرية، ويحبب إليها الميل نحو الشطط والانحراف، فيعيث فساداً فيها، ويضعف الإرادة، ويثبط التفكير، ويحكم سيطرة الطين، فيصبح الإنسان مستعبداً ذليلاً، غير قادر على إعمال عقله واتباع منهج ربه، مما يؤدي إلى شقاء الإنسان وضنك حياته، وعندها يصفق الشيطان فرحاً، فقد حقق هدفه وحصل على الفوز. ولكن الشيطان لجسارته وإصراره على إضلال الإنسان، لايكتفي بهذا؛ بل يأتيه من كل الجهات، مستخدماً لإبعاده عن الهدى والاطمئنان واليقين والاستقامة والنظافة؛ كل الأساليب التي يملكها، ومن ضمنها أتباعه من البشر.

فقوة الشر إما أن تأتي من الخارج، أو من داخل النفس، والوسوسة إما أن تأتي من شياطين الجن، أو من الناس الذين يسلكون طرقاً خفية مخادعة

في تزيين الشر، ونصب الأحابيل، وإضمار السوء.

وإن أسلحة الشيطان كثيرة، ووسائله متنوعة، وتتمحور في قوتين:

محور الشهوات: لإفساد السلوك والتعاملات.

ومحور الشبهات: لتشويش الأفكار والمعتقدات.

وقد وهب الله سبحانه الإنسان إزاءها قوى وقدرات، وأمده بالعون وخير الزاد، والإمدادات.

فبالإضافة إلى العقل والمعرفة والفكر والإرادة؛ لم يتركه وحيداً في صراعه، بل أمده بهديه وتعاليمه التي توضح له سبل السلام، وطريق النجاة، وبرد اليقين، وكيفية مواجهة قوى الشر، والتصدي لها، وغلبتها سواء كانت خارجية أم داخلية. فإذا اتبع هدى الله، ولجأ إلى حماه، وذكره في كل حال، وتذكر رحمته وغضبه، واستعان به، فهو في أمان من الضلال والشقاء والتعاسة والقلق.

وأما الصراع مع قوى الشر الخارجية فيبحث في مجالات أخرى.

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[1].

إن معيشة الإنسان المعرض عن ذكر الله، الخاوي من الإيمان، المنقطع الصلة بالله، هي ضنك وعذاب وقلق ونحيب وحسرات وخسران، وأما الحياة الموصولة بالله ـ سبحانه ـ، في ظلال القرآن، وواحة الإيمان، فتتميز بالأمن والاطمئنان والنور، وثبات الأسس، واستقرار القاعدة، واتساع المدى، وازدياد العمق، والحركة المستمرة الفاعلة الموجهة الهادفة، المرتبطة بمركز القاعدة، والموازية لخطوط الأسس.

فالحياة زاخرة بالحركة والنشاط والتجديد، والتطورات والمشكلات. والإنسان يغدو ويروح، ويكدح، ويشق طريقه خلالها، فإذا سار على حرف لا يقوم على أساس ثابت، وأوغل في البعد عن الصراط المستقيم، وغاب بعيداً عن نور الإيمان، وفقد الارتباط بقاعدة التوحيد، وتعلق بالشركاء، وانحاز إلى الاعداء، وتلبس بالظلماء، فقد ضل ضلالاً كبيراً، وابتعد عن

---

(١) سورة الأنعام. الآية: ٨٢.

هدى الله، واهتزت من تحته الارض، فلا استقرار ولا توازن ولا توجيه ولا منقذ ولا رازق ولاناصر من دون الرحمن، وتبعه الشقاء والتخبط، وأحاطت به الريب والمخاوف، ولو أغلق الأبواب، وتحصن وراء الجدر، وحُرم من الخير والأمن والرضى والبركة،ولو كان غارقاً بالمتاع والأموال والشهوات، وفقد السرب الآمن، والاتجاه الصحيح، والحركة المتوحدة، فتتخطفه الأهواء المتنازعة، وتمزق قواه، وتتركه أشلاء متناثرة،وتتقاذفه الأوهام المفزعة، والأفكار المتضاربة، والفرق المتناحرة، وترمي به الريح إلى المستنقع الآسن في مكان سحيق.﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾[1].

وبعد هذا البيان والتذكير والتحذير، وبعد أن أمد الله الإنسان بهذه القوى، وأرسل إليه هديه وآياته، فإذا تنكب الطريق، وأخلد إلى أديم الأرض، وحياة السائمة، وعيشة الترهل، واتباع الهوى، ولم يأخذ الهدى -الذي جاءه- بقوة، ولم يستعمل أسلحته وقدراته وقواه، فانهارت الأنظمة الدفاعية التي منحه الله إياها، وتوقفت أو نقصت المناعة المقاومة للعدوان والشيطان، وسقط فريسة للأمراض والتمزق والضياع، والغواية والنسيان، والقلق والعذاب المهين، فقد جنى على نفسه، وظلمها هو نفسه؛ فلا يلومن إلا نفسه.﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولوشئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾[2].

ويوم القيامة يُحشر أعمى، ولو كان في الحياة الدنيا بصيراً، ويلقى جزاءه العادل، والعقاب الشديد لإعراضه عن ذكر الله، وابتعاده عن هديه، ونسيانه لآياته التي أتته وذُكِّر بها، فأعرض ونأى.

---

(١) سورة الحج. الآية: ٣١.

(٢) سورة الأعراف. الآيتان: ١٧٥ ـ ١٧٦ .